

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا
تَجْعَرُوا أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُثَلَّلُ
عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِـ
سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [لِلْمُؤْمِنِينَ: 64 - 67]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِأَقْبَالِهَا:

بعد أن ذكرت الآية السابقة حال المشركين برّبهم في الدنيا،
المعرضين عن الإيمان به، المغالين في الانغماس في الباطل في الدنيا؛
ناسب بيان حالهم يوم القيامة عندما يواجهون عذاب جهنم، نتيجة
إعراضهم واستكبارهم، فيرفعون أصواتهم مُستغيثين من عذابها،
لكن مَنْ ذا الذي يُغيثهم من عذاب الله إذ جاءهم؟ فما لهم منه من
عاصم، وقد فات وقت الندم.

الانتقال من
ضلال الدنيا إلى
نتيجته في الآخرة

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿مُتْرَفِيهِمْ﴾: (ترف) كلمة واحدة، وهي التُّرْفَةُ⁽¹⁾: بمعنى
التَّوَسُّع في النعمة، يُقال: أَتَرَفَ فلانٌ فهو مُتَرَفٌ⁽²⁾، فَالتَّرَفُ: التَّعَمُّمُ،
والتَّزَيُّفُ حُسْنُ الغِذاء، وَصَبِيٌّ مُتَرَفٌ إِذَا كَانَ مُنْعَمَ البَدَنِ مُدَلَّلًا،
وَالْمُتَرَفُ: الَّذِي قَدْ أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ وَسَعَةُ العَيْشِ، وَأَتَرَفَتْهُ النِّعْمَةُ؛ أَيِ:
أَطْفَتْهُ⁽³⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالْمُتَرَفِينَ فِي الْآيَةِ: الْمُعْطَوْنَ تَرَفًا، وَهُوَ الرِّفَافِيَّةُ؛
أَيِ: الْمُنْعَمُونَ⁽⁴⁾.

(2) ﴿يَجْعَرُونَ﴾: (جأَر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى رَفْعِ الصَّوْتِ، جَأَرَ يَجْأَرُ
جَأْرًا وَجْوَارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مَعَ تَضَرُّعٍ وَاسْتِغَاثَةٍ⁽⁵⁾، وَجَأَرَ الْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).

(2) الزَّائِبُ، الْمُفْرَدَاتِ: (ترف).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ترف).

(4) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 82 / 18.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (جأَر).

جَوَّارًا، وهو أَنْ يرفعوا أصواتهم إلى الله مُتَضَرِّعِينَ⁽¹⁾، والجَوَّارُ مِثْلُ الخوار، جَأَرُ الثَّوَرِ والبقرةُ يَجَارُ جَوَّارًا: صاحًا، وخَارَ يَخُورُ بِمَعْنَى واحدٍ: رَفَعَا صَوْتَهُمَا، وَغَيَتْ جَوْرٌ مِثْلُ نُفَرٍ؛ أي: مُصَوِّتٌ⁽²⁾، والمقصود بـ﴿يَجْزُونَ﴾ في الآية: يَصْرخُونَ بالتَضَرُّعِ، وهو كنايةٌ عن شِدَّةِ أَلَمِ العذابِ⁽³⁾.

(3) ﴿أَعْقِبْكُمْ﴾: (عقب) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَأْخِيرِ شَيْءٍ وإِتْيَانِهِ بعدَ غَيْرِهِ، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فهو عَقِيبُهُ⁽⁴⁾، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ الرَّجُلِ، وقيل: عَقِبٌ، ورجع على عَقِبِهِ: إذا انْتَهَى راجِعًا⁽⁵⁾، وأَعْقَبَ عَنِ الشَّيْءِ: رَجَعَ⁽⁶⁾، والأَعْقَابُ جَمْعُ عَقِبٍ، وَعَقِبُ كُلِّ شَيْءٍ طَرَفُهُ وَآخِرُهُ، ويُقال: رَجَعَ على عَقِبِهِ وعلى عَقِيبَتِهِ، وَنَكَصَ على عَقِيبَتِهِ بِمَعْنَى رَجَعَ إلى المكانِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَاعِلًا إِيَّاهُ وَراءَهُ فَرَجَعَ، وهو في الآية كنايةٌ عن الإِعْرَاضِ عن آياتِ الله تعالى⁽⁷⁾.

(4) ﴿تَنْكِصُونَ﴾: (نكص) أَصْلٌ يَدُلُّ على الإِحْجَامِ، يُقال: نَكَصَ على عَقِبِهِ، إذا أَحْجَمَ عن الشَّيْءِ خَوْفًا وَجُبْنًا⁽⁸⁾، والنَّكِيسَةُ: التَّأَخُّرُ عَنِ الشَّيْءِ⁽⁹⁾، قال ابنُ دُرَيْدٍ: نَكَصَ على عَقِبَتِهِ: رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ من خَيْرٍ؛ لا يُقالُ ذَلِكَ إِلَّا في الرُّجُوعِ عَنِ الْخَيْرِ⁽¹⁰⁾، والمقصود به في الآية: الرُّجُوعُ من حيثُ أَتَى، وهو الفِرَارُ، وهو هنا تَمْثِيلٌ للإِعْرَاضِ⁽¹¹⁾.

(5) ﴿سَمِرًا﴾: (سمر) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلَافِ الْبَيَاضِ في اللَّوْنِ⁽¹²⁾، وَالسَّمَرُ: الْحَدِيثُ بِاللَّيْلِ، مَأْخُوذٌ مِنَ السَّمَرِ، وهو ظِلُّ الْقَمَرِ، ومنه: سَمَرَةُ اللَّوْنِ⁽¹³⁾، وَالسَّامِرُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي

(1) الخليل، العين، والزَّاعِبُ، المُفْرَدَات: (جأر).

(2) الجوهري، الصَّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جأر).

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 84/18.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقب).

(5) الزَّاعِبُ، المُفْرَدَات: (عقب).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).

(7) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 300/7، وَطَنْطَاوِي، التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ: 47/10.

(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكص).

(9) الخليل، العين: (نكص).

(10) ابن دُرَيْدٍ، جمهرة اللُّغة، والزَّيْدِيُّ، تاج العروس: (نكص).

(11) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 85/18.

(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمر).

(13) الْأَزْهَرِيُّ، تهذيب اللُّغة: (سمر).

يجتمعون فيه للسَّمَر⁽¹⁾، والسَّامِرُ أيضًا: القَوْمُ يتحدثون بالليل، أخرج مُخرج باقر وجامل، والجمع: سَمَار وسامر⁽²⁾، والمقصود بالسَّامِرِ في الآية: اسمٌ لجمع السَّامِرِينَ؛ أي المتحدثين في سَمَرِ الليل؛ وهو ظلمته⁽³⁾.

(6) ﴿تَهْجُرُونَ﴾: (هجر) أصلٌ يدلُّ على قَطِيعَةٍ وَقَطْعٍ، يُقال: هَجَرَ فلانٌ هَجْرًا بِالْفَتْحِ، وهَجَرَانًا بِالْكَسْرِ: إِذَا تَبَاعَدَ، وَهَجَرَ الشَّيْءُ أَوْ الشَّخْصَ: أَيَّ تَرَكَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَضَدَّهُ: الْوَصْلُ⁽⁴⁾، وَيَأْتِي بِمَعْنَى مَا يُسْتَفْحَشُ مِنَ الْكَلَامِ وَالْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ، يُقال: هَجَرَ الْمَرِيضُ فِي كَلَامِهِ هَجْرًا؛ أَيَّ خَلَطَ وَهَذَى⁽⁵⁾، والمُرَادُ بِهِ هُنَا: التَّرْكَ وَالْإِعْرَاضُ، أَوْ الْهَذْيَانُ⁽⁶⁾.

❁ الْمَغْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

تُبَيِّنُ الْآيَاتُ حَالَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِذَا عَاقَبَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَرَفِّينَ الْمُتَعَمِّينَ؛ أَخَذُوا يَصْرُخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِهِمْ، طَالِبِينَ الْخَلَاصَ مِمَّا أَصَابَهُمْ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا تَصْرُخُوا وَتَسْتَغِيثُوا؛ فَلَا شَيْءَ يُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابِي، وَلَا يَنْفَعُكُمْ صُرَاخُكُمْ؛ قَدْ كَانَتْ الْآيَاتُ تُتْلَى عَلَيْكُمْ، فَكُنْتُمْ تُعْرِضُونَ عَنْهَا، حَالِ كَوْنِكُمْ مُسْتَكْبِرِينَ بِسَبَبِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، - تَقُولُونَ: لَا يَظْهَرُ عَلَيْنَا أَحَدٌ؛ لَأَنَّا أَهْلُ الْحَرَمِ - مُتَحَدِّثِينَ لِيَلَّا تَهْذُونَ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ، وَتَقُولُونَ فِيهِ الْبَاطِلَ⁽⁷⁾.

جَوَازُ الْكَافِرِ
الْمُتَرَفِّعِ عِنْدَ نَزُولِ
العَذَابِ كَخَوَارِجِ
الْبَقَرِ عِنْدَ نَزُولِ
الدَّابِحِ

(1) الخليل، العين: (سمر).

(2) ابن دُرَيْدٍ، جمهرة اللُّغة: (سمر).

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 86 / 18.

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هجر).

(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّيْدِيُّ، تاج العروس: (هجر)، والنَّوَاوِيُّ،

التَّوْقِيفُ عَلَى مَهَقَاتِ التَّعَارِيفِ، ص: 342.

(6) السَّمِين، عُمدَةُ الْخَفَاطِ: (هجر).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 78 / 17، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 135 / 12، وابن كثير، تفسير

القرآن العظيم: 482 / 5.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نوع ﴿حَتَّى﴾ ودلالاتها:

(حتى) هنا
ابتدائية وغاية
لما قبلها، وما
بعدها كإدخال
مبتدأ غرضه
التهديد والوعيد

﴿حَتَّى﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ ابتدائية، يُبتدأ بها الجمل ولا عمل لها، وما بعدها هو ابتداء كلام، وهي مع ذلك غاية لما قبلها من حيث المعنى؛ أي: هي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في اللفظ؛ لأن ما بعدها جملة مستأنفة⁽¹⁾؛ كأنه قيل: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى وقت أخذ مترفيهم بالعذاب، والأكثر أن تكون في معنى التفرع، وبهذه الغاية صار الكلام تهديداً لهم بعذاب سيحلُّ بهم، يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه⁽²⁾.

دلالة استعمال ظرف الزمان المستقبل:

تعليق جزاء
أعمال المشركين
بوقت الأخذ

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مُضمَّن معنى الشرط، وجملة: ﴿أَخَذْنَا﴾ جملة شرطية، والمعنى: فليعملوا ما شاءوا من الأعمال حتى وقت أخذهم بالعذاب الموعود، فسيكون لهم من العذاب ما يدهشهم، وما لا يبالغون من ورائه إلا كل ندم وحسرة، ولما كانوا كالبهائم لا يخافون من المهلكة إلا عند المشاهدة غيى عملهم للخبائث بالأخذ، فقال: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا﴾⁽³⁾.

بلاغة الاستعارة باستعمال مُفْرَدَةٍ ﴿أَخَذْنَا﴾:

الأخذ يدلُّ على
قوة العذاب
وشدة سطوته

الأخذ هو: حَوْز الشيء في الأثناء بغلظ؛ أي: قبْض بقوة، وقد جاء أكثرُ فعل (أخذ) بمعنى القبض الحقيقي أو المجازي⁽⁴⁾، وهو هنا مُستعمل في معناه المجازي بمعنى (انتقمنا)؛ ففي مُفْرَدَةِ (الأخذ) استعارةً تصريحيةً تبعيةً، بتشبيه الانتقام من الظالمين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 265 / 24، 266.

(2) الزمخشري، الكشاف: 193 / 3، والآلوسي، روح المعاني: 248 / 9، وابن عاشور، التحرير والتنوير:

81 / 18.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 162 / 13.

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي للوُضَل: (أخذ).

بالأخذ، والتعبير بالأخذ يدلُّ على قوَّة الانتقام المذكور لوجود التَّمَسُّكِ بالمُعَذِّبِ والمنتقم منه وعدم الإفلات له؛ إذ الأخذُ حوزٌ للشَّيء وتمسُّكٌ به، كما يشيرُ إليه قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 42] ويكثرُ ورودُه في وقوع العذاب فجأةً في الدُّنيا، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأُنعام: 44]، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95].

نكتة إسنادِ فعلِ (أخذ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

في إسنادِ فعلِ (أخذ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ: ﴿أَخَذْنَا﴾ إشعارٌ بقوَّةِ العذابِ وشِدَّتِهِ؛ فهو من الشدَّة بحيث لا يقدرُ على إنشائه وبعثه إلَّا مَنْ بيده مقاليدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وعظمةُ الأخذِ تُشعرُ بعظَمَةِ الأخذِ والانتقامِ، ممَّا يدلُّ على عَظَمَةِ الجُرمِ الذي اقترفوه.

دلالة استعمالِ مُفْرَدَةِ التَّرَفِّ:

المتَرَفُونَ همُ الْمُتَعَمِّمُونَ، والتَّعَمُّعُ عندُ العقلاء سببٌ لَجَلْبِ الشُّكرِ، وليس للإغراق في الكفر، لكنَّ الإنسانَ ظلومٌ لنفسه كَفَّارٌ لنعم ربِّه، يُقابلُ النِّعمةَ بالكفران لا بالشُّكران، قال تعالى: ﴿وَعَاتِلُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، ففي ذِكْرِ (التَّرَفِّ) في معرضِ التَّعْذِيبِ والانتقامِ نعيٌّ عليهم؛ لأنَّهم قَلَبُوا موازينَ العدلِ، فـ ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]، وفي ذِكْرِ التَّرَفِّ إيماءٌ إلى سببِ التَّعْذِيبِ والانتقامِ، وأنَّه أصلُ البلاءِ للقلبِ الجَحوذِ، وكذلك تنبيهٌ لأهلِ النِّعمِ أن لا يَفرِّقوا في نِعَمِهِمْ، فيُصيبهم بلاءُ الكُفرانِ، كما أنَّ تعليقَ الانتقامِ بالمشتقِّ ﴿مُتَرَفِّهِمْ﴾ يدلُّ على علَّةِ الانتقامِ؛ وهو التَّعَمُّعُ الواصلُ إلى درجةِ الطُّغيانِ وإنكارِ لقاءِ اللَّهِ تعالى.

تعظيمُ الفاعلِ
يستلزمُ عَظَمَةَ
الفعلِ وعَظَمَةَ
الجُرمِ

ذِكْرُ التَّرَفِّ تنبيهٌ
على سببِ
الكُفرانِ وتنبيهٌ
وتحذيرٌ لأهلِ
الشُّكرانِ

دلالة إضافية (مترفين) إلى ضمير الغيبة:

في إضافة (مترفين) إلى ضمير الغيبة ﴿مُتَرَفِّهِمْ﴾ تنبيه على أنَّ الكافرين طبقات في المعيشة الدنيوية، فمنهم مَنْ يعيش مُترَفًّا بالغاً أعلى مراتب الجحود والكفران، ومنهم مَنْ يعيش خادماً لأولئك يعيش في الأرض فساداً لخدمة أسياده المترفين، لعلَّ ينال من وسخ ترفهم وقذارة بذخهم، ثمَّ يناله ما نالهم في الآخرة، وفي الإضافة تنبيه على أنَّ لكلِّ قوم مترفين، إذا فسَدوا وجحدوا أفسدوا العباد والبلاد، ونشروا شرورهم وكانوا سبباً لنشر الطُّغيان والآثام، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتَرَفِّيَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]، وأنَّ الواجب على العقلاء أن يأخذوا على أيدي المترفين الجاحدين ليُنقذوا أنفسهم من النَّار، وأنَّ لا يكونوا تبعاً لهم في نقل إفسادهم وشرورهم.

توجيه تخصيص المترفين بالذكر:

إنَّما خَصَّصَ المترفين بالتَّعْذِيبِ مع أنَّ شأن العذاب أنَّ يعمَّ الكافرين كلَّهم؛ لأنَّهم أشدُّ إحساساً بالعذاب؛ فهم لم يعتادوا مسَّ الضَّراء والآلام⁽¹⁾، ولأنَّهم - في الأغلب - هم سببُ نزول العذاب بالعامَّة والتَّابعين لهم، لأنَّهم هم الذين يُغوونهم ويُحرِّضونهم على الكفر وهم يمتثلون لكلامهم، ثمَّ إنَّهم يتبرَّؤون منهم يوم القيامة، كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ التَّأَمَّةَ لَمَّا رَأَوْا

(1) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 82 / 18.

للمترفون
الجاحدون أصل
كلِّ بلاءٍ وعذابٍ
في الدُّنيا والآخرة

ترفُّ الجاحدين
علَّةُ العذاب
وسببُ العقاب
ومنبتُ كلِّ شرٍّ
وبلاءٍ

الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ [سبأ: 31 - 33]، كما يحملُ التَّخْصِيسُ دَلَالَةً تَحْذِيرِيَّةً لِكُلِّ مُتَنَعِّمٍ أَنْ يُسَخَّرَ ظَرْفَهُ الْمَعِيشِيَّ الْمُتَرَفِّ نَحْوَ الْإِنْفَاقِ وَعَمَلِ الْخَيْرَاتِ.

تعيين مرجع الضمير في «مُتَرَفِيهِمْ»:

الضمير في قوله تعالى: «مُتَرَفِيهِمْ» يعودُ إلى الكفار الذين مرَّ ذكرهم فيما مضى، وهم كفار مكة⁽¹⁾، فهو رجوعٌ إلى وصف الكفار، وهو أولى؛ لأنه إذا أمكن ردُّ الكلام إلى ما اتَّصلَ به كان أولى من ردهُ إلى ما بعده⁽²⁾، ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميعَ المشركين، فتكون الإضافة بيانِيَّةً، ويكون ذِكرُ المترفين تهويلاً في التهديد، وتذكيراً لهم بأنَّ العذابَ يُزيل عنهم ترفهم، والمعنى: (حتى إذا أخذناهم) وهم في ترفهم⁽³⁾، وهي وإن كانت خاصَّةً بالْمَذْكُورِينَ فِي السِّيَاقِ، إِلَّا أَنَّ حَمَلَهَا عَلَى الْعَمُومِ أَوْلَى؛ لِأَنَّ هَذَا سَنَّةٌ جَمِيعِ الْمُتَرَفِينَ الْجَاهِدِينَ.

نوع الباء ودلالاتها «بِالْعَذَابِ»:

الباءُ في قوله تعالى: «بِالْعَذَابِ» على معناها الأصلي وهو (الإلصاق)، وهو دالٌّ على شِدَّةِ تعذيبهم لكونهم مُلتصِقِينَ بِالْعَذَابِ مُتَلَبِّسِينَ بِهِ، فتدلُّ ملابستهم للعذاب على بيان نوع الأخذ والانتقام أنَّه أخذٌ تعذيبٌ وإهلاكٌ وتدمير، وأنَّ ليس بينهم وبين العذاب حاجزٌ حتَّى إِنَّهُمْ تَوَغَّلُوا فِيهِ وَخَاضُوا فِي غَمْرَاتِهِ.

معنى التعريف في لفظ العذاب:

(أل) في كلمة «بِالْعَذَابِ» لِلْجِنْسِ الْمُسْتَلْزَمِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ بِمَعُونَةِ الْمَقَامِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ أَفْرَادِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَالْجُوعِ الَّذِي أَصَابَهُمْ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ

الضمير يرجع
إلى كفار مكة
ويُعْمَدُ بدلالته
السَّنَنِيَّةُ

باء الملاصقة
دليل على
توغلهم في أنواع
العذاب

العذاب عامٌّ
يدخل فيه كلُّ ما
أصاب المترفين

(1) الألوسي، روح المعاني: 9 / 249.

(2) أبو حنَّان، البحر المحيط: 7 / 571.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 83 / 18.

الله ﷻ بقوله: «... اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يَوْسُفَ»⁽¹⁾، فَحُطُّوا حَتَّى أَكَلُوا الْكَلَابَ وَالْجِيفَ وَالْعِظَامَ الْمَحْرِقَةَ وَالْأَوْلَادَ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْعَذَابُ الْآخِرِيُّ⁽²⁾.

بلاغة اختيار مُفْرَدَةِ الْعَذَابِ:

عَبَّرَ بِ (العَذَابِ) دُونَ (العِقَابِ)؛ لِأَنَّ (العَذَابَ) هُوَ اللَّفْظُ الْأَوْسَعُ مَعْنًى، فَيَشْمَلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعِقَابُ وَزِيَادَةً، فَالْعِقَابُ يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحْقَاقِ، وَسَمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقِيبَ فِعْلِهِ، أَمَّا الْعَذَابُ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحَقًّا وَغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ⁽³⁾، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ بَيْنَ (العِقَابِ وَالْعَذَابِ) عُمُومًا وَخُصُوصًا مطلقًا، فَكُلُّ عِقَابٍ عَذَابٌ، وَلَيْسَ كُلُّ عَذَابٍ عِقَابًا، كَمَا أَنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ تَكُونُ مَخْفَفَةً بخِلَافِ الْعَذَابِ الْمُسْتَلْزَمِ لِلشَّدَّةِ، وَهَذَا فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعَذِّبُ إِلَّا عَنِ اسْتِحْقَاقٍ، وَلَا نَنْسَى أَنَّ الْعَذَابَ أَنْسَبُ لِلْأَخْذِ؛ لِأَنَّ الْإِنْتِقَامَ يَكُونُ بِالْعَذَابِ أَوْجَعَ مِنَ الْعِقَابِ الَّذِي يَخْتَلِفُ شِدَّةً وَقُوَّةً.

نوع ﴿إِذَا﴾ الثَّانِيَةِ وَدَلَالَتُهَا:

اِخْتَلَفَ فِي ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْرُونَ﴾؛ فَقِيلَ: هِيَ الظَّرْفِيَّةُ⁽⁴⁾؛ أَيْ: وَقْتَ جَوَارِهِمْ⁽⁵⁾، وَقِيلَ: هِيَ الْفُجْأَتِيَّةُ، وَالْمَعْنَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتَرْفِعِهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ فَاجَأَكَ جَوَارِهِمْ بِالصَّرَاحِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِاللَّهِ ﷻ مِنْ عَذَابِهِ، وَ﴿إِذَا﴾ الثَّانِيَّةُ فِي مَوْضِعِ جَوَابِ ﴿إِذَا﴾ الْأُولَى⁽⁶⁾، وَكَوْنُ الْجَوَابِ مُفَاجِئًا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ

العَذَابُ أَعَمُّ
دَلَالَةً مِنْ
الْعِقَابِ،
وَالْعِقَابُ أَخْصَّ

الْمُتَرْفِئُ إِذَا وَقَعَ
بِهِ الْعَذَابُ
فَاجَأَكَ بِجَوَّارِهِ
وَاسْتِغَاثَتِهِ

(1) صحيح البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6393).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 142/6.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239.

(4) الهمداني، الكتاب الفريد: 612/4.

(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضى وكفاية الراضى: 337/6.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 142/6، والآلوسي، روح المعاني: 248/9.

بمجرّد أخذهم به صرخوا واستغاثوا، وما تلك السُرعة التي تُتَبَّى عنها المفاجأة إلا دليل كون العذاب غير مُحتمَل.

بلادة جملة ﴿هُم يَجْرُونَ﴾:

قُدِّم المُسند إليه - وهو ضميرُ الفصل - على المُسندِ الفعليّ في قوله تعالى: ﴿هُم يَجْرُونَ﴾ لتقوية الحكم، وتأكيد حصول جوارهم وصُراخهم واستغاثتهم مع ما فيه من التّخصيص، فهم يجأرون دون غيرهم؛ بسبب ما أصابهم من شدّة العذاب، وهول المصاب، ولأنّهم كانوا السّبب في إغواء غيرهم، فيتحمّلون أوزارهم وأوزار من يضلّونهم بقسوة العذاب وشدّته.

دلالة التّعبير بمفردة ﴿يَجْرُونَ﴾ مادّة وصيغة:

أوثر التّعبير بمفردة ﴿يَجْرُونَ﴾ دون غيرها، لما تحمّله من معنَي رفع الصّوت مع الاستغاثة والتضرّع، يُقال: جَارَ يَجَارُ جَأْرًا وجُؤارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مع تَضَرُّعٍ واستِغَاثَةٍ⁽¹⁾، وفيه إيماؤ إلى تشبيههم بالبقر عندما يخورُ تهكُّمًا بهم واستخفافًا، فما أشبه الجوار بالخوار؛ بل الخوار ألطف على الأذن من الجوار؛ لأنّهم أضلُّ من الأنعام، ودلّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَجْرُونَ﴾ على تكرُّر جوارهم وصُراخهم وتجدّده كلّما اشتدّ عليهم العذاب، وازدادَ عليهم لَفْحُ جهنّم.

نكتة حذف متعلّق الفعل:

حُذف مُتعلّق ﴿يَجْرُونَ﴾ فلم يُقَلَّ: (يجأرون من العذاب) لمعرفة المحذوف من السّياق، وإفادة العموم؛ أي: يجأرون من العذاب كلّهم بجميع ألوانه، أو لتنزيله منزلة اللازم، فهم يجأرون جوارًا ثابتًا فيهم، بحيث يصبحُ مسلّكهم ومنهجهم في العويل والنّحيب مع ما في الحذف من مراعاة الفاصلة.

شدّة العذاب
تستدعي جوارًا
لم يُسمَع

جوارُ المُشركِ
أشدّ من خوارِ
البقر

الجوارُ سلوكُ
المعدّبين وصوتُ
المُعاقبين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).

نوع ﴿لَا﴾ ودلالاتها:

توبيخ المشركين
على جوارهم
وتقريعهم على
استغاثتهم

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَجْرُوا﴾ ناهية، والغرض من النهي تحسيرهم وإقناطهم بقطع آمالهم في الإغاثة من هذا العذاب الذي حلَّ بهم؛ فمعنى: ﴿لَا تَجْرُوا﴾: احرصوا واصمتوا فلن يُفيدكم ذلك مهما بالغتم فيه، مع ما فيه من التقريع والتوبيخ والتهديد، وقيل: النهي هنا مُستعملٌ في معنى التسوية، وورود النهي في معنى التسوية مقيسٌ على ورود الأمر فيها، وقد اجتمعا معاً في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطّور: 16⁽¹⁾؛ أي: جأرتم أو لم تجأروا؛ فالأمر سيان.

نكتة التعبير بالنهي دون الأمر:

الجوار مستمر
ما دام العذاب
قائماً

آثر النظم الكريم التعبير بالنهي دون الأمر؛ فقال تعالى: ﴿لَا تَجْرُوا﴾ ولم يقل: (احرصوا أو انتهوا أو اصمتوا ونحوه)، لكونه أجزر وأنسب بالمقام، من جهة كونه ناشئاً عن حالهم وواقعهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾، فإنَّ قوله تعالى: ﴿يَجْعَرُونَ﴾ وصفٌ لم يسمعه أولئك؛ بل حكي عن حالهم، فكان إسماعهم ﴿لَا تَجْرُوا﴾ هو موضع التقريع والتوبيخ، بخلاف أن يأتي أمر بالصمت، فإنه يلزمهم السكوت، وليس إسكاتهم مطلوباً؛ بل المطلوب تقريعهم وتوبيخهم، فإنَّ الجوار مستمرٌ ما دام العذاب واقعاً.

بلاغة ذكر الظرف:

النهي ثابت في
يوم الجوار؛ فما
أطولُه من يومٍ!

من المعلوم أنَّ النهي يكون في زمن، وقد آثر النظم ذكر ﴿الْيَوْمِ﴾ مع كونه لا يحتاج إلى ذكر؛ لأنَّه مُتَعَيَّنٌ ومعلومٌ؛ وذلك "لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجوار"⁽²⁾، وللايماء إلى أنَّ النهي عن الجوار سيكون اليوم، فما دام هناك جوارٌ سيكون نهْيٌ عنه في ذلك اليوم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 85 / 18.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 142 / 6.

بلغة التعليل ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ جملة تعليل، فموقع (إن) هنا إفادة التعليل؛ لأنها تُغني غناء فاء التفریع⁽¹⁾، والتعليل للنهي عن الجوار ببيان عدم إفادته ونفعه؛ أي: لا يلحقكم من جهتنا نصرَةٌ تُنجيكم ممّا دهمكم⁽²⁾، وغرضها التّيسر من حالهم التي وصلوا إليها، فإنّ حالة الجوار هي حالة اليأس الغريق، ولا منجى لهم إلّا بيد من قال: ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾، ولا يعني هذا التحديد أنّهم يُنْصَرُونَ من غيره تعالى؛ لأنّهم لما صرخوا كان جوارهم مُتوجّهاً له دون غيره، وعندما يُعلمهم بأنّه لا يلحقهم نصرٌ من جهته فمعناه أنّه لا ناصر لهم غيره تعالى.

حالة الجوار
حالة اليأس
الغريق

بلغة استعمال حرف (من):

(من) في قوله: ﴿مِنَّا﴾ ابتدائية، والمعنى: إذا لم يلحق نصرٌ ابتداءً من جهته تعالى؛ فلا نصرَةٌ لهم أصلاً إذ لا ناصر سواه، وجوّزوا أن تكون ﴿مِنَّا﴾ للتّعدية على تضمين النّصر معنى المنع⁽³⁾؛ أي: لا يمنعكم أحدٌ من عذابنا، أو تضمين معنى النّجاة؛ أي: لا تتجون من عذابنا، فثمّ مُضافٌ محذوفٌ بعد (من) - وهو العذاب - وحذفُ المُضاف في مثل هذا المقام شائعٌ في الاستعمال⁽⁴⁾، ويترجّع الابتداء على غيره الذي يستلزم التّضمين أو تقدير المحذوف؛ لأنّ نفي النّصرة من جهة الله تيسّر له بعدم وجود أيّ ناصر لهم، ويكون فقدان الناصر كنايةً عن مكوثهم في العذاب لترك الله تعالى نصرتهم وإغاثتهم.

تضمين النّصر
معنى النّجاة
من العذاب

نكتة إينار الإضمار على الإظهار:

جاء التعبير بالضمير في قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ ولم يقل: (إنكم من

التّهديد
بالخطاب أوقع
من التّهديد
بالغيبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 85 / 18.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 142 / 6.

(3) القنوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 198 / 13.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 85 / 18.

الله لا تتصرون)، لأنَّه أدلُّ وأوقعُ على المُراد، لأنَّه لا مُنازعَ له سبحانه حتَّى يتميَّز بالإظهار، ولما فيه من التَّهديد بعبارات الخطاب، فإنَّ خطابَ المُعذَّب أشدُّ من الغيبةِ إذا كان نتاجه اليأس وانعدام الأمل، كما أنَّهم لما جأروا وصرخوا من العذاب لم يُحدِّد النَّظْمُ المجوِّور له؛ للدَّلالة على أنَّه الله وحده ولا أحدَ غيره، ومن ثمَّ فإنَّ المقامَ مقامُ إضمار تشخيصاً لما تمَّ السَّكوت عنه سابقاً، فيكون التَّقدير: (إذا هم يجأرون - إلى الله - لا تجأروا اليوم إنَّكم منَّا لا تتصرون)، فكان تركُّهم للفظ الجلالة للعلَم بأنَّهم لا يجأرون لغيره، فكانت معلوميَّته سرّاً وراء الإضمار في مقام الإظهار، وفي التَّعبير بضمير الجمع للتَّعظيم دلالةٌ على عظمة ذلك النَّاصر والمُعِين لو بذل نُصرته لهم.

نكتة تقديم الجارِّ والمجروِّ:

قدَّم الجارُّ والمجروِّ: ﴿مِنَّا﴾ على النَّفي ﴿لَا تُنْصَرُونَ﴾؛ للاهتمام بجانب الله تعالى فهو المقدَّم، فإن كانت النُّصرة من أحدٍ في ذلك اليوم العصيبِ فهي من الله تعالى، مع ما فيه من رعاية الفاصلة، ونُلَمِّح هنا إلى أنَّ تقديم مبدأ النُّصرة المنفِية يُفيد اختصاص النُّصرة به في ذلك اليوم بأسلوب المجازاة؛ إذ لا يحصل الإقناط بسلب النُّصرة من جهته ووجود جهاتٍ أخرى تنصرُهم من عذاب الله، فيكون المُراد: ابحثوا عن ناصرٍ لكم ينصرُكم من دون الله، فإن لم تجدوا فإننا لن ننصرُكم، وهذا أبلغ في نفي النُّصرة وإثبات أنَّه النَّاصر وحده تعالى.

غرض النَّفي ﴿لَا تُنْصَرُونَ﴾ ودلالته:

جاء نفي النُّصرة في قوله تعالى: ﴿لَا تُنْصَرُونَ﴾ بغرض التَّيئيس وقطع أيِّ أملٍ لهم في النُّجاة من هذا العذاب الَّذي هم ملابسوه، فإنَّ نفي النُّصرة بهذا العموم والإطلاق، يقضي على أدنى أملٍ قد يعنُّ لبعضهم؛ لأنَّ جملة النَّفي وقعت خبراً عنهم فتفيد تقوية الحُكم وتأكيده.

الإقناط الكامل
يتحقَّق عن
طريقِ مُجازاةِ
الخَصْمِ

بلادة فعل ﴿تُنْصَرُونَ﴾ مَادَّةٌ وصيغة:

جاء فعل ﴿تُنْصَرُونَ﴾ مضارعاً منفياً، للدلالة على استمرار النَّفْيِ قطعاً لأطماعهم في النَّجاة حالاً واستقبالاً، وبُني للمفعول للتهويل، ولتبيئهم من أدنى أمل، وكأنَّه فَقَدَ الْعِلْمَ بِمَنْ يَنْصَرُهُمْ ويمنع عذاب الله عنهم؛ وإذا جُهِلَ النَّاصِرُ والمُعِينُ ثَبَتَ اليأسُ لهم وانقطعَ سبيلُ النَّجاةِ عنهم.

نفى النَّصرة
مَتَجَّةً لكلِّ ما
يتوَقَّعُه الدَّهْنُ

دلالة فصل صدر الآية:

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ مفصولٌ عن جملة ﴿إِنَّكُمْ مِمَّنْ لَا تُنْصَرُونَ﴾ لقصد إفادة معنى التَّندِيمِ والتَّلهِيفِ، وعلى هذا فالجملة استئناف⁽¹⁾، أو لبيانِ علةِ عدمِ نصرهم⁽²⁾؛ أي: لا تُنْصَرُونَ في هذا اليوم لأنَّه كانت آياتي تُتلى عليكم، وعلى هذا، فسبب الفصل هو كون الآية تعليلاً لما قبلها، وهو المُسَمَّى بالفصل لشبهه كمال الاتصال، ووجهة هذا الرَّأْيِ في الجمع بين عِلَّتَيْنِ؛ هي أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِمَّنْ لَا تُنْصَرُونَ﴾ تعليلٌ لنهيهم عن الجوار، وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ تعليلٌ لعدمِ نصرهم، فهما عِلَّتَانِ لمعلولين مختلفين، وتوالي المعلول مع علته طريقة إقناعية وبرهانية لتفنيد حُجَجِهِمْ وبيان منشأ غلطهم وأنَّهم المُتَسَبِّبُونَ في هذا المصير السيئ والعذاب المهين من دون ظلمٍ وقعَ عليهم، أو غَبْنٍ تحقَّقَ فيهم.

لا ينصر الله من
أعرض وكذب
بآياته

دلالة استعمال أداة ﴿قَدْ﴾:

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، والمُرَاد تحقيق وقوع ما دخلت عليه، وهو تلاوة آيات القرآن عليهم من النبي ﷺ ومن المؤمنين في كلِّ عصر، فلا مجال للشك في ذلك أو الإنكار له، وهذا التَّحْقِيقُ للحدث يُنبئ

التَّحْقِيقُ مُسَجَّلٌ
لفداحة ظلمهم
لأنفسهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 85 / 18.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 142 / 6، والبقاعي، نظم الدرر: 163 / 13.

عن مدى فداحة ظلمهم لأنفسهم في عدم الانتفاع بما يُتلى عليهم من البراهين والأدلة الدامغة.

فائدة ذُكر فعل الكون الماضي:

إقامة الحجّة
وإرغام الخصم
علّة عدم النصرة

أثر النظم الكريم ذُكر الفعل الماضي ﴿كَانَتْ﴾ لبيان أن تلاوة آيات القرآن الكريم كانت في كلِّ وقتٍ وحينٍ، فلم يقل: (قد تليت آياتي)، بالإضافة إلى تأكيد تلاوة آيات القرآن عليهم واستمرار التلاوة⁽¹⁾ عليهم، وفي ذلك إقامة الحجّة عليهم، حيث إنه لم يكن هناك تقصير في تبليغ الدعوة، وإقامة البرهان، وهو ما يُرشح أنها علّة للجملة المتقدمة.

دلالة إضافة الآيات إلى ضمير المتكلم:

تشريف الآيات
دليل على أنها
الحق الواجب
اتباعه

في إضافة الآيات إلى ضمير المتكلم ﴿ءَايَاتِي﴾، والمتكلم هنا هو ربُّ العالمين، تشريف وتعظيم للآيات المتلوة، وهي آيات القرآن الكريم وبراهينه القطعية الدالة، فلا مجال لحمل الآيات هنا على غير آيات القرآن الكريم بقرينة قوله: ﴿تَتْلُو﴾، وتشريف الآيات يدل على صدقها وحقيقتها وحقيّة الرسول المبلّغ لها وصدقته.

دلالة بناء فعل التلاوة للمفعول:

تكريم التالي
(قارئ القرآن)
بعد تشريف
المتلوة (الآيات)

في بناء الفعل ﴿تَتْلُو﴾ للمفعول إفادة للعموم؛ أي: عموم التالين للآيات دون تعيين، وتكريم لمن يتلون الآيات المشرفة، وذلك بعد أن شرفت الآيات المتلوة نفسها بالإضافة إلى ضمير المتكلم العائد إلى المنزل سبحانه؛ فلما كانت عظمة الآيات التي استحققت بها الإضافة إليه سبحانه تكفي في الحث على الإيمان بمجرّد سماعها، بُني للمفعول قوله تعالى: ﴿تَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: وهي أجلُّ الأشياء من أوليائى وهم الهداة النصحاء⁽²⁾.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5092 / 10.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 193 / 3.

نكتة التعبير بالمضارع ﴿تُتْلَى﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿تُتْلَى﴾ اسْتِحْضَارًا لِلْحَالَةِ الْمَاضِيَةِ وَتَصْوِيرًا لَهَا، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَةً أَمَامَهُمْ وَقَتَ الْعِتَابِ وَالتَّأْنِيبِ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْتَبَرُوا.

دلالة استعمال مُفْرَدَةِ التَّلَاوةِ:

فِي اسْتِعْمَالِ مُفْرَدَةِ التَّلَاوةِ مُمَثَّلَةً فِي الْفِعْلِ ﴿تُتْلَى﴾ دَلَالَتَانِ، الْأُولَى: أَنَّ الْقِرَاءَةَ قَدْ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ، بِمَعْنَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ قَامُوا بِتَبْلِيغِهِمْ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا وَلَمْ يُقْصِرُوا فِي تَبْلِيغِهِمُ الْآيَاتِ، الثَّانِيَّةُ: أَنَّ مُقْتَضَى التَّلَاوةِ الْإِتِمَامُ بِاتِّبَاعِ مَا يُقْرَأُ وَيُتْلَى، فَالْقُرْآنُ إِنَّمَا يُتْلَى لِيُعْمَلَ بِهِ، وَلِذَلِكَ خُصَّتْ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ دُونَ غَيْرِهِ بِاسْمِ (التَّلَاوةِ)، وَعَلَى هَذَا؛ فَالتَّلَاوَةُ أَخْصُ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ تِلَاوَةٍ قِرَاءَةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ قِرَاءَةٍ تِلَاوَةً، لَا يُقَالُ: تَلَوْتُ رَقْعَتَكَ؛ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَجَبَ عَلَيْكَ اتِّبَاعُهُ، بَتَلَوُّ الْعَمَلِ لِلْقِرَاءَةِ⁽¹⁾، فَالتَّلَاوَةُ تَقِيدُ الْمَتَابِعَةَ مِنْ (التَّتَالِي) وَ(التَّلَوِّ)، سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ بِتَتَالِي الْآيَاتِ الْمَقْرُوءَةِ أَوْ بِتَلَوُّ الْعَمَلِ لِلْمَقْرُوءِ.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

مِنْ بِلَاغَةِ الْقَوْلِ فِي اسْتِعْمَالِ حَرْفِ الاسْتِعْلَاءِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَنْ يَتْلُوها وَمَنْ تَتْلَى عَلَيْهِ، لِتَمَكُّنِهَا مِنْ أَدَوَاتِ الْهُدَايَةِ وَأَسْبَابِهَا، فَالْقُرْآنُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] وَمَا تَكُونُ مِنْهُ الْهُدَايَةُ يَكُونُ مُشْرِفًا وَمُسْتَعْلِيًا عَلَى مَنْ يَتْلُوهَا.

نوع الفاء ودلالاتها في ﴿فَكُنْتُمْ﴾:

(الفاء) عاطفة ودالة على الترتيب والتعقيب؛ أي: كنتم بمجرد

استحضار
التلاوة زمن
العتاب تذكير
لهم بظلمهم

التلاوة تحقيق
الإسماع وإلزام
الحجة

القرآن الكريم
نعمة على
العباد ترفع من
متبعيه وتحط
من مخالفه

(1) الزاغب، المفردات: (تلو).

سماع الآيات تنكصون على أعقابكم رفضاً لها وانصرافاً عنها؛ فالفاء تُشعرُ بسرعة الردِّ والرَّفض، وأنَّهم كانوا قاطعين ومُتسرِّعين في الإنكار.

براعة مجيء ﴿فَكُنْتُمْ﴾ بعد ﴿كَانَتْ﴾:

مقابلة ديمومة
التلاوة بديمومة
الإعراض

مضى أنَّ فائدة ﴿كَانَتْ﴾ الأولى تأكيد الوقوع واستمرار التلاوة، وأمَّا ﴿فَكُنْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ فللدلالة على أنَّ نكوصهم على أعقابهم، هو كالطبع فيهم والسَّجِيَّة لهم، بحيث لا يتخلف، فالآيات تُلِيت عليهم على الدَّوام، وهم قابلوها بالنُّكوص على الدَّوام، وبهذا التَّقابل بين الفعلين المتضادَّين، الأوَّل منهما الدَّعوة إلى الخير، والثاني: الإعراض عنه والردُّ له يتجلَّى مقدار الذَّنْب الذي أحرزوه والجرم الذي اقترفوه، إذ كانوا يُقابلون دعوات الآيات بالإعراض والنُّفور، فلا حُجَّة لهم اليوم، ولا نصير يُعينهم الآن.

بلاغة مجيء حرف الاستعلاء:

سماع القرآن
سبب فرار من
شابة الحُمُر
المُسْتَفِرَّة

آثر النِّظْم استعمال حرف الاستعلاء في قوله: ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ دون أن يقول: (فكنتم تنكصون)، وذلك للدلالة على عَجَلَتِهِمْ وسُرْعَتِهِمْ وفرارِهِمْ من سماع الذِّكْرِ، كما قال سبحانه عنهم بعد ذلك: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ وقوله في موضع آخر: ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93] وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُحْلِي عَلَيْنَا فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية: 31]، كما تمَّ التَّقابل بين حرفي الاستعلاء أيضاً؛ إذ كانت الآيات تُتلى عليهم وكانوا يَنكِصُونَ على أعقابهم بدلاً من الانتفاع بها والعمل بمضمونها.

بلاغة التعبير بمفردة: ﴿أَعْقَابِكُمْ﴾:

تصوير مشهد
الإعراض بالفرار
عن الحق

الأعقاب: مؤخَّر الأرجل، وفي التعبير بها دلالة على إدبارهم

وإعراضهم عن القرآن بطريق الكناية؛ لأنَّ المرءَ إذا مشى باتجاه عقب رجليه، فإنَّه يسيرُ إلى الوراء والخلف، وفيه تصويرُهم بأبشع صور الفرار، وفي جمع ﴿أَعْقَبَكُمْ﴾ دلالةٌ على كثرتهم واحتشادهم، وأنَّ المعرضين عن القرآن ليسوا قلةً، كما أنَّها أُضيفت إلى ضمير المخاطبين، للتشديد بهم وتشديد النكير عليهم.

بلادة الاستعارة التمثيلية:

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ استعارةٌ تمثيليةٌ؛ فهو تشبيهٌ حالٍ بحالٍ، حيث شُبِّهت حالهم عند سماع القرآن بأذانهم دون أن تَعْيَهُ قلوبهم فيعرضون عنه ويدبرون بحالٍ مَنْ يسيرُ الفهقرى إلى الوراء، لبيان شدة غفلتهم وإعراضهم وفرارهم من سماع الحق، الذي يبدو ظاهراً مُنْكَشِفاً سافراً، فهو تمثيلٌ حالهم بحال الخائف من الوقوع فريسةً لقسورةٍ يريدُ الانقضاض عليه، ففع ما فيه من ذمهم بسبب إعراضهم، ففيه كذلك تقبيحٌ لصورتهم التي تدلُّ على خورهم وجبنهم، وبذلك يتمُّ التَّقابل بين صورة الآيات التي تتابع عليهم قادمةً إليهم تريدُ النفع لهم، وصورة الرجوع إلى الخلف هاربين من السَّماع والانتفاع.

غرض تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل:

قدَّم النظمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ على فعل ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ لتصوير إعراضهم وإدبارهم، وإبرازه للقارئ في صورة المشاهد المحسوس، ولأنَّ غرابة النكوص على الأعقاب مُقدِّمةٌ في الذِّكر لبيان حالهم الغريبة العجيبة، كما فيها مراعاة للفواصل.

بلادة التَّمثيل باستعمال مُفْرَدَةٍ ﴿تَنكِصُونَ﴾:

النكوص هو الرجوعُ من حيث أتى الإنسان، ولا يُقال: (نكص) إلَّا في الرجوع عن الخير⁽¹⁾، ويُقالُ مجازاً للفرار والإدبار، كما في

المُعرضون عن
الحقَّ جمعوا
بين خورهم
وصدودهم

غرابة الحال
تقتضي تقديم
أبرز ما فيها

غرابة الإعراض
يناسبها غرابة
النكوص

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكص).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ (الأنفال: 48)؛ أي: ولَّى مُدْبِرًا، والنَّكُوصُ هنا "تمثيلاً للإعراض"⁽¹⁾، فالمشركون نَكَصُوا على أعقابهم في حين أن أسباب الهداية والرَّفْعَة والعِزَّة والنَّجَاة في الدَّارَيْنِ حاضرة، لكنَّهم أَتَوْا بفعلٍ غريبٍ مُخَالِفٍ للفطرة فقلِّبوا الموازين، ونَكَصُوا على أعقابهم كِبَرًا وَجُحُودًا وإِعْرَاضًا.

بلادة التعبير بالمضارع ﴿تَنكِصُونَ﴾:

دلَّ التَّعْبِيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَنكِصُونَ﴾ على تَكَرُّرِ النَّكْصِ منهم كترجمة لما أفادته (كان) من دلالةٍ على أَنَّ النَّكْصَ والإِعْرَاضَ هو فيهم أصبح طبعًا وجبلةً، وفيه لَوْمٌ وتوبيخٌ شديدٌ؛ أي: كنتم تنكصون المرَّةَ تلو الأخرى بعدد سماعِ آيات القرآن الكريم، فما لانت قلوبكم، ولا استجابت عقولكم، ففيه تهديدٌ شديدٌ بأنَّ ينالوا عقابَ إعراضهم إِعْرَاضًا عن إنجائهم وإنقاذهم من عذابٍ شديدٍ.

بلادة التعبير بلفظ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ بالنَّصْبِ حالٌ من فاعلِ ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أي: ﴿تَنكِصُونَ﴾ حال كونكم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن سماعِ آيات القرآن التي تُتلى عليكم، وفي استعمال اسمِ الفاعلِ الجَمْعِيِّ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ دونَ التَّعْبِيرِ عنه بفعلٍ (تستكبرون) دلالةٌ على كثرتهم، وعلى أَنَّ استكبارَهم طبعٌ ثابتٌ مُؤَصَّلٌ فيهم، ولو عبَّرَ بالفعلِ بدله لأفادَ الحدوث والتجدُّد دون الثبوت والرُّسُوخ، كما أَنَّ السَّيْنَ والتَّاءَ في ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ للتَّوْقِيَةِ، وقد تُحْمَلان على الطَّلَبِ بتنزيلهم منزلةً مَنْ يطلب الاستكبار، فيدلُّ على شدَّةِ حرصهم عليه، وأفادتِ الحالُ أَنَّ نكوصَهم ورجوعَهم إلى الخلف كان بهيئة المُسْتَكْبِرِينَ عن سماعِ الآيات، وبذلك جمَعوا بين حالة الخوف من خلال الإِدْبَارِ والتَّوَلَّى عن المواجهة وحالة الصُّدُود من خلال الاستكبار، فكانوا يجمعون

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 85 / 18.

مَنْ أَصَرَ عَلَى
الاستكبارِ فلا
ينتظرُ العَفْوَ من
الجَبَّارِ

رسوخُ الاستكبارِ
وتدُّ للمجرمين
في النَّارِ

بين الخَوَرِ النَّفْسِيِّ وَالصَّدودِ الفِعْلِيِّ عندما كانوا يتراجعون إلى الخلف وهم مُستكبرون عن سَماع الآيات التي تُلَى عليهم.

نوع (الباء) وتعيين مرجع الضمير، وأثرهما في التنوع الدلالي:

الأظهر أَنَّ الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ يعود إلى (الآيات) في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ عَائِنِي﴾ وتذكيره؛ لأنها "في" تأويل القرآن، فيكون ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ بمعنى مُعرضين استكباراً، وتكونُ الباءُ بمعنى (عن)، أو ضَمَّنْ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ معنى ساخرين، فعُدِّي بالباء للإشارة إلى تضمينه⁽¹⁾، ويجوز أن تكون (الباء) للمصاحبة أو للسببية على معنى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ استكباراً مُصاحِباً لسماعه؛ أي: مُتعالين على القرآن نفسه، أو مُتعالين بسببه لأنهم لم يُذعنوا لحقائقه⁽²⁾، والأرجح أَنَّ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ قد تَضَمَّنْ معنى السُّخْرية التي تتعدى بـ(الباء)، فيكون في استكبارهم سُخْرية به في آنٍ واحدٍ، وبذلك جمعوا بين الاستكبار والسُّخْرية معاً، وهذا شأنُ المُستكبرين أن يَمزجوا غرورهم بالسُّخْرية والاستخفاف، وقيل: الضمير للتكذيب المفهوم من قوله: ﴿تَنكِصُونَ﴾⁽³⁾ فتكونُ الباءُ للسببية كذلك؛ أي: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ بسبب التكذيب، أو على تضمين الاستكبار معنى التكذيب⁽⁴⁾؛ أي: مُكذِّبين به.

دلالة استعمال مُفْرَدَةٍ ﴿سَمِعَ﴾ مادةً وصيغةً:

التعبير بـ(السَّمَر) يدلُّ على الانشغال باللهو عن القرآن، فإنهم قد استبدلوا العبثَ واللهو بالقرآن، لخفة عقولهم، ويجوز أن يكون التعبير بها إخباراً عن الواقع، وأنهم كانوا كلَّما استمعوا للقرآن خلصوا إلى مجلس السَّمَر حتَّى ينشغلوا به فينصرفوا عن التأثر بالقرآن، وقد

الضمير للآيات
بمعنى القرآن،
وللباء احتمالات
متعددة

من أمارات خفة
العقل وضعف
الرأي استبدال
الترخيص
بالغالي والغث
بالسمين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 85/ 18.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5093/ 10.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 198/ 13.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 143/ 6.

حكى القرآن عنهم في هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

و﴿سَمِرًا﴾ منصوبٌ على الحال، كما نُصب ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عليها؛ فهي حالٌ ثانيةٌ من ضمير المخاطبين؛ أي: حال كونكم مُستكبرين وحال كونكم سامرين، والسَّامر: اسمٌ جمع وإن كانت صيغته صيغة الأفراد، وهو اسمٌ لجمع السَّامرين؛ أي: المتحدِّثين في سمر الليل وهو ظلمته، أو ضوء قمره، فالسَّامر ك (الحاج والحاضر والجامل)؛ بمعنى: (الحجاج والحاضرين وجماعة الجمال).

توجيه القراءات القرآنية في ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وبلادتها:

المشركون
كانوا يهْجُرُونَ
بالهْذيان عند
سَماع القرآن
فيهِجُرُونَ
سماعه

قرأ نافعٌ وحده: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم⁽¹⁾، والحجَّة لقراءة فتح التاء وهي قراءة الجمهور: أنَّ المراد هُجرانُ المصادمة، لتركهم سماع القرآن والإيمان به، والحجَّة لقراءة ضمها وهي قراءة نافع: ﴿تَهْجُرُونَ﴾؛ أي: تأتون بالهَجَر، وهو الهذيان وما لا خير فيه من الكلام، ومنه الحديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها ترقُّ القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هُجراً»⁽²⁾، والهَجَر مأخوذٌ من قولهم: أهجر المريض إذا أتى بما لا يفهم عنه، ولا تحته معنى يُحصَل، لأنهم كانوا إذا سمِعوا القرآن لَفَوْا فيه، وتكلَّموا بالفحش، وهذوا، وسبَّوا؛ فقال الله ﷻ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾⁽³⁾، ومن بلاغة القراءات هنا أن إحداها قيِّدت إطلاق الأخرى، فقراءة فتح التاء تحتل: (تهجرون ذكر الله والحق، وتهجرون كتاب الله تعالى ونبيه ﷺ، وتهجرون البيت؛ تقولون هُجراً من القول، وهو

(1) ابن الجزي، النشر: 2/ 329.

(2) الحاكم، المستدرک، کتاب الجنائز، حدیث رقم: (1393).

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 258، والفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 298.

اللغو والهديان)، فأنت قراءة الضم لتؤكد المعنى الأخير؛ وهو السبب والإفحاش من المنطق.

نكتة التعبير بالمضارع ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مع حذف المتعلق:

دلّ استعمال صيغة المضارع ﴿تَهْجُرُونَ﴾ على استمرارهم في هَجْرِ القرآن، والهَجْرُ أثناء سماعه عندما يُتلى عليهم، وتجدد ذلك كله عند تجدد دواعيه، وقد حذف متعلق ﴿تَهْجُرُونَ﴾ فلم يقل: (تهجرونه) أو (تهجرون القرآن) للعلم به، فالسياق دالٌّ عليه، أو لتنزيله منزلة اللازم، فهم يهجون القرآن هجر ترك، وهَجَرَ فُحْش، ولمراعاة الفواصل.

بلغة توالي الأحوال:

توالى الأحوال في السياق من مثل ﴿عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ﴾ و﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ و﴿سَمِرًا﴾ و﴿تَهْجُرُونَ﴾؛ فبدل ذكر هذه الأحوال جميعها متتالية، وكلها في السوء أرفع من بعض، على كونهم قد جمعوا كل المعاني الذميمة والأحوال السيئة في تعاملهم مع القرآن الكريم صدًا وإعراضًا، ولَهَوًا عنه، وَلَعَوًا فيه وهذيانًا، وهذه كلها معانٍ وأحوال قد تلبس بها المشركون في تعاملهم مع القرآن الكريم، ومما يلفت الأذهان أنَّ هذه الأحوال جاءت لبيان اجتماعهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، و﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، إذ هو يدعو إلى التعجب من حال هؤلاء المعرضين عن القرآن والاستغراب "من أن يجتمع جمع على مثل ذلك؛ لأنَّ الجمع جديرٌ بأنَّ يوجد فيه من يُبصرُ الحقَّ فيأمرُ به" (1).

بلغة الفواصل المتوالية:

بُيت فواصل الآيات الماضية على بناء أكثر فواصل سورة (المؤمنون)، وهو ختمها بالواو والنون، فهي من حيث التناغم

العناد على
الباطل ثمرة
المودة في الباطل

أحوال المشركين
مع القرآن منهج
مسنون لكل
معرض ومذبر

اتتلاف اللفظ
واتساق المعاني
سمة الفواصل
القرآنية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 164.

الصَّوتِي مُتَنَاعِمَةً، وملحوظٌ فيها مراعاة الفواصل، مع اكتنازها لأسرار بلاغية ودلالات تركيبية، بيّنت التقديم والتأخير، وحذف المتعلقات في كلٍّ من: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، و﴿وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ﴾، و﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾، و﴿وَهُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾، و﴿إِذَا هُمْ يَجْرُونَ﴾، و﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾، و﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِصُونَ﴾، و﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلِيمًا تَهْجُرُونَ﴾ كما سبق بيانه في مواضعه، والشأن من حيث المعنى، هو شأن الفاصلة القرآنية عمومًا التي بُنيت على الائتلاف والتناسب بينها وبين آياتها، لفظًا ومعنى، ممّا هو ساطعٌ في الفواصل القرآنية سطوع النجم في سماء الليل البهيم.

❁ الفروق المُعْجَمِيَّة:

التَّرف والغنى:

التَّرف هو التَّوسُّع في النِّعمة، يُقال: أَتَرَفَ فلانٌ فهو مُتَرَفٌ⁽¹⁾، وقد دأب القرآن الكريم على استعماله في محلِّ الذَّمِّ، تنبيهًا على أنَّ المتَّرف لم يعرف لنعمة الله قدرها، فاستعملها في غير محلِّها فألت به إلى الكُفران بدل الشُّكران، تأمَّل هذا المعنى في هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: 33]، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ﴾، والغنى هو ما يُنافي الحاجة، ويبلغ حدَّ الكفاية ويكون بالمال وغيره من القوَّة والمعونة، وقد قيل: قد يكثر المال والإنسان مُفْتَقِرٌ⁽²⁾، وبذلك يكون الفرق بين التَّرف والغنى ظاهرًا في أنَّ التَّرف يكون في بسط النِّعمة والمال حتَّى تجاوز المتَّرف في تصرفاته الاستعماليَّة لتلك النِّعمة التي لم يُدرك واجباتها

(1) الرَّاغِب، المُفردات: (ترف).

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 175، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المُفردات: (غني).

التَّرفُ بسطُ
النِّعمة والإفراط
فيه بشكلٍ
مذموم، والغنى
يكون بالمال
وغيره

حدود المعقول والمقبول شرعاً وعرفاً، والغنى يكون بالمال وبغيره ممّا يسدُّ الحاجة ويغني عن السؤال، والتَّرفُ مذمومٌ في القرآن؛ لأنَّه مُصاحِبٌ لكُفْرانِ النِّعم، والغنى يكون مذمومًا وغير مذمومٍ بحسبِ أداء الحقِّ فيه والشُّكر عليه أو عدمه.

الجُّوار والصَّراخ:

الصُّراخُ: الصَّوتُ الرَّفيعُ، تقول: صَرَخَ صَرَخَةً وَاصْطَرَخَ، بمعنى، والتَّصَرَّخُ، والمُسْتَصْرِخُ: المُسْتَغِيثُ⁽¹⁾، وأمَّا الجُّوار فهو رفعُ الصَّوت مع الاستغاثة والتَّضرُّع، يُقال: جَارَ يَجَارُ جَارًا وَجُورًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مع تَضَرُّعٍ وَاسْتِغَاثَةٍ⁽²⁾، وبهذا يكون في الجُّوار معنى زائدٌ هو التَّضرُّع، وأمَّا الاستغاثة فقد تكون مع الصُّراخ أيضًا، كما أنَّ الجُّوار فيه تهكُّم بالصَّراخ؛ لأنَّه في أصله صوتُ البقر والثَّور بخلاف الصُّراخ.

العَقِبُ والدُّبُرُ:

العَقِبُ: مُؤَخَّرُ الرَّجْلِ، وقيل: عَقَبٌ، وجمعه: أعقاب⁽³⁾، ويُطلق مجازًا على الإعراض والصدود والفرار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144] وقوله: ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، والدُّبُرُ: خِلافُ الْقَبْلِ، ودُبُرُ الْأَمْرِ ودُبُرُهُ: آخِرُهُ، والدُّبُرُ: الظَّهْرُ، قال الله تعالى: ﴿وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [الزمر: 45]⁽⁴⁾، ويُطلق الدُّبُرُ مجازًا على ما يُطْلَقُ عليه العَقِبُ مجازًا؛ أي: يُطْلَقُ على الإعراض والصدود والفرار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال: 16]، وقوله: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15]، وبذلك يظهر أنَّ هنالك اشتراكًا بينهما في الدلالة المجازية مع الاختلاف في المعنى الحقيقي لكلٍّ منهما.

الجُّوارُ رفعُ
الصَّوتِ مع
استغاثةٍ
وتضرُّعٍ،
والصُّراخُ رفعُهُ
باستغاثةٍ
وبغيرها

العَقِبُ مُؤَخَّرُ
الرَّجْلِ، والدُّبُرُ:
خِلافُ الْقَبْلِ،
ويشتركان في
الدلالةِ للجَّازيةِ،
ويختلفان في
أصلِ اللعني

(1) الجوهري، الصَّاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرخ).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).

(3) الزَّاغِب، المُفْرَدَات: (عقب).

(4) الجوهري، الصَّاح: (دبر).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-78-5

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»